حمق دعاة التعقيم

نشرت في مقتطف اكتوبر الماضي مقالا جمعنا فيه أهم ما يقال في تأييد فكرة « اصلاح النسل بالتعقيم » ووصف العملة الجراحية وآثارها والقوانين التي سنت لهذا الغرض في مختلف بلدان العالم وطريقة تطبيقها في ولاية كاليفورنيا الاميركية . وفي المقال التالي رد على دعاة التعقيم بقلم الدكتور اغناطيوس كوكس استاذ ادب النفس في جامعة نوردم الاميركية

ليس لعاقل ان يعترض على الغرض الذي ترمي اليه « حركة اصلاح النسل » Eugenics وهو صحة الذريات المقبلة وهناءتها . ولكن محاولة تحقيق هذا الغرض بوسائل لا تستند الى أساس علمي او أدبي — واذن فهي لا تستند الى أساس شرعي — اي بالتعقيم ، تلقى مقاومة عنيفة من كل من يتدبر الموضوع ويتأمل فيه . قال الاستاذ جننغز [1] : لقد اصبح علم الحياة من الموضوعات التي يعنى بها الجمهور ، ولكن حماسة البيولوجي يضعفها ريبتهُ في صحة الاقوال والآراء التي تذاع باسم البيولوجيا . فالحالة تفسح المجال لمن لا ينقد آراءه ولا يمحصها ، ولا يساوره ريب ما في ان علمهُ قد حلَّ مشكلات الانسانية »

فدعاة التعقيم يسعون الى ازالة الذين لا يصلحون للتناسل ، وتخفيف الاعباء التي يلقونها على كواهل المجتمع بتكاثرهم وعدم صلاحهم للنهوض بما يطلبهُ المجتمع منهم . والخطأ الذي يقع فيه بعض البوجنيين انهم يقيسون سلامة السلالة بالمقام الاجتماعي او المقدرة الاقتصادية او درجة التعليم ، ناسين ان المقام الاجتماعي ليس فضيلة ، وان المقدرة الاقتصادية قد تنطوي على الاجرام ، وان التعليم النظامي قد يفضي الى انشاء صلات ليست في الطبقة العليا من النقاء النفسي او النفع العام . فكأن هؤلاء اليوجنيين يخلطون بين التعليم والذكاء . بين النظافة والمعيشة الصالحة . بين الجهل والاجرام . ويؤيدني في قولي هذا ، المستر ريمون پرل Pearl مدير البحث البيولوجي في جامعة جنز هبكنز إذ يقول في رسالة لهُ : ان ليس الغرض منها الحكم على طبقات بأسرها من الناس بعدم صلاحها للتناسل ، لاسباب اجتماعية او اقتصادية ، ولا ان يبيّن تضمناً ان طبقة واحدة من الناس — أي طبقة متخرجي الكليات والجامعات — هي الطبقة التي يرغب فيها وفي تناسلها من الناحية اليوجنية

ولكن لا ريب ، في ان هناك أفراداً ، في الطبقات العليا والطبقات السفلى والطبقات المتوسطة من المجتمع ، مصابون بضعف جسماني او عقلي . ويمكن تقسيم هؤلاء الى ستة فُرَق (الاول) فريق المصابين بأمراض معدية كالسلولين والمصابين بالزهري او بالجذام . (الثاني) فريق المنحطين أمثال

(١) استاذ علم الحياة في جامعة جنز هبكنز في كتابه (الطبيعة البشرية واساسها البيولوجي)

المُهار السادين ومدمني المخدرات (الثالث) فريق المذنبين أمثال المتشردين والمجرمين (الرابع) فريق المتوكلين مثل الصمّ والبكم والكمه (الخامس) فريق المصابين بأمراض عقلية (السادس) فريق المصابين بضعف عقلي مثل البُله وضعاف العقول (morons)

فما هي الوسيلة العلمية لازالة هؤلاء المصابين من حيث هم آباء وأمهات يخلفون ذريات مصابة بعلة من العلل المذكورة ؟

علينا اولاً ان نتبين هل هذه العلة وراثية او مكتسبة . والمسلم به عند جمهرة علماء الحياة ، ان الصفات المكتسبة لا تورّث . ولكن الناس الذين ينخرطون في سلك الفرق الاربعة الاولى هم أناس مصابون في الغالب بعلل مكتسبة . والطائفة الكبرى من هذه العلل تمكن معالجتها ، أما بوسائل الطب ، او باقامة أصحابها في منشآت خاصة بهم . أما فيما يتعلق بالاجرام فيرى الاستاذ دافنبورت مدير قسم التناسل في معهد كارنيجي بوشنطن العاصمة ، «ان القصاص العاجل المؤلم هو خير علاج للمجرم »

فلا يبقى لدينا الاّ فريقان هما الفريق الخامس وهو فريق المصابين بأمراض عقلية والفريق السادس وهو فريق المصابين بضعف عقلي

أما فيما يختص بالفريق الاول فيرى الاستاذ ميرسُن Myerson — وهو من الثقات في الموضوع — ان قليلاً من الامراض العقلية الكبرى يورّث ، وعند التخصيص يقول ان مرضين فقط من هذه الامراض تتوارثهُ أسر معينة وهما السرسام[1] والجنون الهيجي الانقباضي والثاني أعمهما . بيد ان هذا لا يمنع حدوث اصابات منعزلة بأحد هذين المرضين ، اي لا صلة لها البتة بما تتوارثه أسرة من الاسرة المصابة ، بل ان الاسر التي تتوارث احد هذين المرضين قليلة الذكر ، في تقارير الاطباء والمعاهد الطبية . . . فكأن المرض العقلي ، كالمرض الجسدي ، اما ان يبيد السلالة التي تصاب به ، او تشفى منهُ شفاءً تامًّا[2]

ويرى لندمن Landman ان اسباب الامراض العقلية لا تزال لغزاً او سرًّا مكنونًا[3] . بل ان بول بوبينو — وهو من دعاة التعقيم — يصرّح بأن تناسل المصابين بالامراض العقلية قليل ، وان معدل زواجهم اقلّ من متوسط الزواج العام . وعلاوة على ذلك يحتاج المصابون بالامراض العقلية الى حفظهم في المستشفيات الخاصة بهم لينالوا العناية اللازمة ، وفي هذه الحالة لا فائدة تجنى من تعقيمهم او لا معنى لهُ على الاطلاق

اما افراد الفريق السادس ، اي المصابون بضعف العقل ، فهم الذين يسترعون عناية اليوجنيين

---

(١) كان يعرف باسم dementia praecox وصار الآن يعرف باسم schizophrenia (دائرة المعارف البريطانية ج ١٢ ص ٣٨٦ سطر ١٤ (٢) كتاب سيكولوجية الانحراف العقلي لميرسن ص ١١٦ — ١١٧
(٣) كتاب « تعقيم الانسان » تأليف لندمن صفحة ١٤٦

بوجه خاص ، واليهم يتّجه التشريع الخاص بالتعقيم . ولكن ما نعلمهُ عن انتقال الضعف العقلي بالوراثة ، ليس اكثر مما نعلمهُ عن انتقال الامراض العقلية بالوراثة . فالاستاذ ميرسن يرى « ان جانباً كبيراً من الضعف العقلي مردُّهُ الى البيئة . ان جانباً منهُ وراثي ولكن اصلهُ مجهول ، وقد يكون مثالاً على انحطاط الذكاء كما ان العبقرية مثال على تدرجهِ وارتقائهِ ». ويقول ميرسن في جانب آخر من كتابهِ : « لقد كُتبت كتب كثيرة عن ضعف العقل ، ادّعى فيها مؤلفوها ان ضعاف العقول هم المجرمون في البلاد والفاسقون ، وان كثرة تناسلهم تجعل كثرة السكان في المستقبل منهم اذا لم يعالجوا بطريقة او اخرى من الطرق المقترحة .... ولكن خبرتي الطويلة بالامراض الجسدية والعقلية ، اثبتت لي ان الامر التي يضربون بها المثل على ضعف العقل ليست في الحقيقة ضعيفة العقل . حتى اذا سلّمنا بانها ضعيفة العقل ، فانها ليست نموذجاً على ضعاف العقول . وقد بيّنت في غير هذا المكان الخلط الذي يقع فيهِ بعض الكتّاب بحسبانهم قلة الثقافة من قبيل ضعف العقل »

اما موضوع تناسل ضعاف العقول وكثرة ولدهم فلنرجع فيهِ الى تقرير لجنة التعقيم التي عيّنتها الحكومة البريطانية وقد نشر في السنة الماضية فقد جاء فيهِ : ان ما يدعى عن خصب المصابين بضعف العقول هو في رأينا من قبيل الاساطير ، ناتج من ان بعض الشواذ عن القاعدة ، تذاع انباؤها في الصحف لاتصالها بحوادث غريبة تنظر فيها المحاكم . وقد درس لندمن ٦٠٥ حادثة من المصابين بضعف العقل في كاليفورنيا فوجد ان ٣٤ في المائة من الرجال و٢٨ في المائة من النساء كانوا في مستشفيات خاصة بالامراض العقلية فتعقيم هؤلاء لا معنى لهُ لانهم لن يخلفوا نسلاً الاّ اذا كان للتعقيم فائدة في معالجة اصابتهم . فالخوف من ان ضعاف العقول ، يتناسلون بعدد من النسل يزيد زيادة نسبية على مواليد الطبقات الاخرى ، لا يستند الى دليل ، ولا يثبت عند توجيه نور العلم الكشاف اليهِ

***

ولكن لنفرض اننا نعلم عن امراض العقل ، وضعف العقل اكثر مما نعرف ، ولنضرب صفحاً عن قول لندمن « .... ان التعقيم الانساني كبرنامج اجتماعي يحتاج الى العلم اكثر من حاجتهِ الى التخيّل » . ولنمرّ مرَّ الكرام بكلام هومز حيث يقول : « يجب ان يعترف بان اكثر ما كتب في اليوجنية في طفولة هذا العلم ، متصف بالتعميم العجول ، والمبالغة في غير احتراس »[1]

دعنا من قبل هذا ، ولنفرض اننا نعرف على وجه التحقيق اي الصفات الانسانية مكتسب ، واييها وراثي . فلكي نزيل بعض الصفات الوراثية غير المرغوب فيها ، بالتعقيم ، يجب ان نعرف الاسلوب الذي تنتقل بهِ هذه الصفات بالوراثة

فبعض علماء الحياة يسلمون بنظرية عوامل الوراثة gene theory في تفسير توارث الصفات الانسانية

(١) س . ج . هومز « عقدة اليوجنية » ص ١٣٤٠

ونظرية عوامل الوراثة ، درست درساً عملياً في غير الانسان ، وطبقت عليه بالقياس فقط تطبيقاً غير تام . والاستاذ جننغز ينبّه على هذا في كتابه[1]

يقول اصحاب نظرية العوامل الوراثية انهُ اذا اجتمعا عاملان وراثيان لصفة خاصة ، احدهما من الاب والآخر من الام ، وكانا سليمين ، او كان احدهما سليماً ومتفرقاً Dominant ، فالشخص الذي يجتمعان فيه يكون سليماً . وكثير من الناس من يحمل في مادته التناسلية ، عاملاً معيباً ، معيباً . ولكن العيب لا يبدو عليه ، لأن العامل الذي يقابلهُ او يزاوجه متفوّق وسليم . ولا يبدو العيب في المولود الا اذا اجتمع عامل معيب من الوالد بالعامل المعيب الذي يقابله من الوالدة فالذين يحملون في اجسامهم العاملين الخاصين بصفة ما وكان احدهما معيباً يدعون « الحوامل » على مثال من يحمل ميكروب التيفود ، ولا يصاب بها . والمظنون ان في الولايات المتحدة نحو عشرة ملايين من هؤلاء الناس البسلام الاجسام ، الذين يحملون في طياتها عوامل وراثية معيبة خاصة بضعف العقل . وليس ثمة وسيلة علمية على الاطلاق لمعرفة هؤلاء الناس ولتعقيمهم خوفاً من ان تجتمع عواملهم الوراثية — او بعضها — بما يقابلها في ازواجهم فيلدون ضعاف العقول

ويقول جننغز ايضاً في الصفحة ٢٤٢ من كتابه : « اذا حسبنا ان نسبة ضعاف العقول في الامة كنسبة واحد الى الف ، فاننا نحتاج الى ٥٨ جيلاً او من الفين الى ثلاثة آلاف سنة ، لكي نجعلها ١ في ١٠٠٠٠ اذا نحن اعتمدنا في ذلك على منع تناسل ضعاف العقول » . وسبب ذلك ان ضعف العقل يظلُّ يتوارث عن طريق الذين يحملون احد عوامله الوراثية ، وهؤلاء لا نستطيع تبينهم لكي نمنعهم من التناسل بالتعقيم . ويختم جننغز قوله بأن التقدم في انقاذ البشر من ضعف العقل يحتاج الى امرين ، الاول طريقة نتبين بها الذين يحملون عوامل ضعف العقل من سلام الاجسام والثاني تبين اي الصفات الانسانية المتوارثة تنشأ عن زوج واحد فقط من العوامل الوراثية . والصعوبة في هذا ان احوال المعيشة السيئة ، قد تحدث اثراً كأثر العوامل الوراثية المعيبة . فقد يصبح الناس مجانين او مجرمين او مسلولين لعيب في عواملهم الوراثية او لعيب في احوال معيشتهم او لعيب في الاثنين

ولكن اذا فرضنا اننا بلغنا كل هذا ، فان مشكلة القائلين بالتعقيم لا تحلُّ . لأن سؤالاً خطيراً يواجههم ، وهو كيف نشأت هذه العوامل المعيبة اولاً . وهل اجسام البشر ماضية في توليد عوامل وراثية معيبة ؟ فعلم الحياة قد اثبت ان اشعة اكس ، وبعض الاشعة تولد في النبات تحولات في عوامل الوراثة . وليس جميع هذا التحوُّل مما يجلب الخير . بل بعضهُ مما يضرُّ . افلا يجوز ان تكون اجسام البشر ماضية في توليد عوامل معيبة ، بفعل طائفة من الاسباب والبواعث المعقدة التي لا ندركها ؟ ليس عند علماء الحياة جواب عن هذا السؤال . واذا كانت اجسام البشر ماضية في توليد هذه العوامل ، فتعقيم المصابين بها ، والحاملين لها ، لا يجدي

(١) الطبيعة البشرية واساسها البيولوجي .